E- ISSN : 2571-9742

صورة الجزائر في مصادر الرحلة الغربية خلال العهد العثماني
رحلة هابنسترايت أنموذجا

غزالي عبدالعالي طالب دكتوراه(*)
gezeli3112@gmail.com
د.نقادي سيدي محمد
smnegadi@yahoo.fr
جامعة تلمسان

h تاريخ الإيداع: 2017/01/15 تاريخ القبول: 2018/03/01 تاريخ النشر: 2018/03/31

الملخص:

حظيت الجزائر بمكانة هامة من طرف الرحالة الغربيين خلال القرن الثامن عشر من العهد العثماني، وكان الرحالة الألماني"ج.أو.هابنسترايت" من بين الذين تميزت كتاباتهم بالدقة والموضوعية في الوصف وسرد الأحداث المتعلقة بواقع الجزائر الاجتماعي والسياسي والديني، اذ تعكس لنا هذه الرحلة مظاهر البنية الإجتماعية والعمرانية ذات الأبعاد الدينية المختلفة، لاسيما وأن هذه المظاهر تحكمها السلطة التركية العثمانية في بيئة متعددة الأجناس والثقافات، كما تكشف لنا هذه الرحلة أيضا مدى التنوع النباتي والحيواني الذي كانت تتوفر عليه الجزائر.

الكلمات الدالة:

الجزائر؛ الرحلة؛ ج.أو.هابنسترايت؛ البنية الاجتماعية؛ السلطة العثمانية.

Abstract:

Algeria occupy an important place by western travelers during the 18th century from the Ottoman era, the German traveller "J.E.Hebenstreit" between those who are characterized by their writing, accuracy , objectivity and in the description of events relating to the Algeria recounted by the social, political and religious, it also revealy to us this trip also the diversity of plant and animal, which was avaible in Algeria.

Key words :

Algeria ; travelers ; Ottoman ; J.E.Hebenstreit

(*) المؤلف المطابق

دون الرحالون المستشرقون رحالاتهم والتي هي عبارة عن مذكرات يومية تصور الواقع اليومي المعاش للرحالة، وحظيت الجزائر خلال العهد العثماني باهتمام كبير في أدبيات الكتابة لدى هؤلاء المستشرقين، واستطاعوا أن يعطونا صورة صادقة عن واقع الجزائر كمجتمع تحكمه عادات وتقاليد معينة، وكنظام سياسي يخضع لسلطة دينية ذات أبعاد مذهبية مختلفة، وكمنطقة جغرافية غنية بثرواتها الطبيعية لاسيما تموقعها الإستراتيجي الذي خول لها البسط والنفوذ على عالم البحر المتوسطي، ومن بين الرحالة الذين سخروا أقلامهم لسرد وقائع الجزائر وتاريخها خلال القرن الثامن عشر هو العالم الألماني "هابنسترايت" في رحلته المعنونة "برحلة العالم الألماني "ج.أو.هابنسترايت" الى الجزائر وتونس وطرابلس 1145هـ/1732م"، حيث ساعدته الظروف على أن يقدم لنا عرضا شاملا وملاحظات دقيقة عن عادات وتقاليد اهل مدينة الجزائر، والتطرق إلى مختلف الاثنيات داخل المجتمع، إلى غير ذلك من وصف للمساجد والجانب الحضاري بشكل عام.

سأركز في هذا البحث على ما كتبه الرحالة الألماني حول الجزائر التي خصص لها حوالي ثمانين صفحة من الوصف والسرد لما شاهده وعبر عليه في رحلته، فسأعرف بالرحلة وصاحبها ثم سأتعرض إلى المجتمع خصائصه ومكوناته الإثنية، ثم أتناول الجانب العمراني، لأبين في عنصر أخير الجغرافية الطبيعية لمدينة الجزائر. فكيف تأتى "لهابنسترايت" التعاطي مع واقع الجزائر الاجتماعي والسياسي؟ وما هو الغرض من رحلته إلى الجزائر؟

وفيم تكمن البنية العمرانية الدينية لمدينة الجزائر من خلال هذه الرحلة؟

أولا: تعريف مؤلف الرحلة(هابسبرايت)

هو طبيب وعالم نبات ألماني[1] من أهالي مدينة نودشتادت أون أورلا(Neustadt/Orla) الواقعة بمنطقة الساكس بألمانيا[2]، درس الطب في شبابه بجامعة ييبنا (Iena) واستقر ببلايبزيغ (Leipzig) وتحصل على عمل بفضل توصية من عالم النبات "ريفيناس" (Rivinas)، حيث اشتغل عند أحد التجار الاغنياء فأوكلت اليه مهمة العناية بالنبات النادرة[3] وهذا ما سمح له بمواصلة دراسته والحصول على مؤهل سمح له بمزاولة مهنة الطب، يبدو أن الاشارات التي وردت في كتاب الرحلة لهذا العالم أنه كان متمرسا في فنون الطب والنبات والأدوية بلاشك، لان مترجم هذه الرحلة المؤرخ "ناصر الدين

سعيدوني" نراه يؤكد على ذلك في كثير من تعليقاته، لاسيما وأن هذا العالم كانت له طموحات أكبر في التوغل نحو صحراء الجزائر وأدغال افريقيا لاكتشاف النباتات وطبيعة تلك المجتمعات في ذلك، ولعل هذا أكبر دليل على أنه كان يركز على المعرفة العلمية المتعلقة بمجال تخصصه أكثر من تركيزه على مهمته في رصد التقارير الدبلوماسية المكلف بها من طرف الملك "أغسطس الثاني"[4] وفي هذا الصدد يقول سعيدوني: «جاءت رحلة "هابنسرايت" في شكل رسائل وجهها الى راعي الرحلة ملك بولونيا ومنتخب الساكس يطلعه فيها على ما شاهده أو تعرف عليه أو جلب انتباهه في أثناء سفره الى الجزائر..».[5]

أثناء ذلك عرف "هابنسترايت" بسلوكه المنضبط وإخلاصه في أداء عمله، حيث أنه حظي بثقة ملك بولونيا ومنتخب الساكس "أغسطس الثاني"(1670–1733م)، وكلفه برئاسة بعثة علمية مرفوقة بتقارير مفصلة عن واقع شمال افريقيا السياسي والاجتماعي والديني، والعمل على جمع عينات حول النباتات والحيوانات كفائدة للقصر الملكي[6]، اذ لم تساعده الظروف في رصد معلومات دقيقة بشكل أكبر عن هاته المناطق المترامية الاطراف بعد أن سادت روح العداء الأروبي نتيجة الاحتلال الاسباني لمدينة وهران سنة 1732م، مما اضطره الى تحديد مهامه وتحركاته وان كان يأمل في استكمالها بقطع الصحراء الكبرى والوصول الى السنغال والتعرف على دواخل افريقيا[7].

اتسمت علاقة "هابنسترايت" مع حكام الجزائر وباقي المناطق بالاحترام المتبادل وحسن التصرف وإظهار الود حسب ما يطلعنا عليه مترجم الرحلة، اذ استطاع العالم الالماني أن ينال ثقة حكام الجزائر ومساعديهم وبذلك يكون قد وفر لنفسه أجواء ملائمة للحصول على ما يريد في مهمته العلمية الاستكشافية خاصة في الجزائر[8]، وتميز عن باقي الرحالة الغربيين أنه متفهم لميول الشعوب وخصائص الجماعات وخاصة طبائع أهل الريف، وكان صاحب نظرة ثاقبة عبر من خلالها بصدق عن مشاعره وابداء آرائه بصراحة واضحة عما كان يجري في أقطار المغرب العربي[9] وبالتالي استطاع أن يتجاوز النظرة السطحية لدى غالب الرحالة الاروبيين التي تحكم على ظاهر الاشياء، يتضح لنا من خلال هذه الملامح في شخصية العالم الالماني حسب ما يوردها لنا سعيدوني أنه كان رجلا اجتماعيا وصاحب تجربة في قطع الفيافي والكشف عن حقائق المجتمعات بالمغرب العربي لاسيما المجتمع الجزائري.

ثانيا: التعريف برحلة هابنسترايت:

E- ISSN : 2571-9742

تكتسي هذه الرحلة[10] مكانة خاصة لأنها تقدم لنا صورة عامة وصادقة عن أوضاع المغرب العربي في النصف الاول من القرن الثامن عشر، يقول عنها "سعيدوني":« أنها أقرب ما تكون الى الاعتدال والموضوعية والنظرة المتزنة بالمقارنة مع باقي الكتابات المعاصرة لها»[11]، يثبت لنا سعيدوني من خلال هذا التعريف أنها رحلة علمية تميزت عن باقي الرحلات والكتابات الغربية بالاعتدال والموضوعية والدقة في مضمون محتواها من ناحية الصياغة المنهجية والوصف الجغرافي، حيث اهتمت هذه الرحلة بالتعريف بالأسفار والمسائل المتعلقة باللغات والعادات والفنون والجديد من الاكتشافات والبحوث حسب ما هو محدد فيها، وهي تسلط الضوء على فترة حساسة وحافلة بالأحداث في تاريخ العربي عامة والجزائر بصفة خاصة.

يرجع الفضل في الكشف عنها وترجمتها وتقديمها والتعليق على معانيها للمؤرخ الجزائري "ناصر الدين سعيدوني"، جاءت هذه الرحلة في 174 صفحة في حجم متوسط وطبعت الطبعة الاولى بدار الغرب الاسلامي بتونس سنة 2008م، تضمنت هذه الرحلة أربعة رسائل أدبية ذات طابع تاريخي وصفي لطبائع المجتمعات وواقعهم الديني والسياسي، وجهت الى ملك بولونيا ومنتخب الساكس ليطلعه فيها على ما شاهده "هابنسترايت" أو تعرف عليه أو جلب انتباهه في أثناء سفره الى الجزائر وعند انتقاله بتونس أو توجهه الى طرابلس الغرب[12]، حيث يذكر سعيدوني في التقديم أن هذه الرحلة ظلت منسية ولم يتعرف القراء عليها بعد وفاة مؤلفها مدة تجاوزت عشرين عاما، الا أن جاء العالم "بيرنويي" (Bernouilli) فاطلع عليها واعتبرها ذات فائدة تاريخية كبرى للمعلومات الغنية التي اشتملت عليها والملاحظات الدقيقة التي تضمنتها، فحرص على نشرها ضمن مجموعته المختصرة عن الرحلات(De Antiquatatitus Kleiner Reisen).[13]

تتجلى مظاهر هذه الرحلة في الوصف والتقييد والرواية لكل المناطق التي نزل بها "هابنسترايت" في الجزائر[14] وباقي المناطق، فجاءت الرسالة الاولى وصفية لأحوال مدينة الجزائر الإجتماعية، وسرد لأهم الاحداث للداي ونظام الجيش لاسيما الظروف التي تميزت بها محاولة الاسبان استرجاع مدينة وهران والمرسى الكبير بعد ان طردوا منها(1708م)، أما الرسالة الثانية فتضمت أخبار جولته في بعض المدن كمليانة والمدية وبرج حمزة مؤرخة في 1732م، أما الرسالة الثالثة فوصف لنا فيها الرحالة الالماني

مشاهداته وانتقاله من مدينة الجزائر الى تونس مرورا بقسنطينة والقالة، كما احتوت الرسالة الرابعة على بعض الملاحظات أثناء سفره من تونس الى طرابلس في أكتوبر 1732م.[15]

ثالثا: بنية المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني من خلال الرحلة:

وصف "هابنسترايت" أحوال مدينة الجزائر الاجتماعية بصورة دقيقة وواضحة مصححا معلومات خاطئة لرحالة أوروبيين سبقوه، حيث يقول: «لقد سنحت لي الفرصة أن أتعرف أثناء رحلتي هذه أن أتعرف على سلوك وعادات هذه البلاد، وهذا ما سوف أعرضه فيما يلي من أجل تصحيح معلومات مارمول ودابير وتاسي فيما كتبوه عن مملكة الجزائر»[16]، يوضح لنا سعيدوني أن كتابات هؤلاء وغالبية القناصل والرحالة الاوربيين بمعاداة الوجود العثماني في الجزائر، وبالتالي نلتمس من هذه الرحلة انصاف الرحالة الالماني للوجود العثماني لأنه استقبل بطريقة حسنة من طرف داي الجزائر ولم تكن له نية مبيتة لصالح أعدائها.

كثيرا ما وردت كلمة "مملكة الجزائر" عند "هابنسترايت" في رحلته بشكل مستمر، اذ تدل هاته الصيغة على أن الجزائر كانت دولة قوية على مستوى البحر المتوسط وفرضت وجودها الاقتصادي والسياسي على دول أروبا وأمريكا، ومن القرائن الدالة على ذلك ما يؤكد عليه المؤرخ الجزائري "مولود قاسم" في كتاباته ومواقفه المعروفة عنه من منطلق تصحيح المفاهيم ورد الاعتبار للجزائر على العهد العثماني بالوثائق، حيث قال: «كانت الجزائر في المصاف الاولى للدول الكبرى، عزيزة الجانب وأدنى خطوة، لها صداها وأي صدى، وقولها هو القول الفصل»[17]، وفي موطن آخر يثبت لنا ذلك برسالة من لويس الرابع عشر الى الداي الحاج أحمد سنة 1965م جاء فيها **Gouvernement de la République d'Alger** »[18]، يبدو أن الجزائر في هذه الفترة كانت دولة مستقلة سياسيا وإداريا عن الدولة العثمانية وإنما لم تكن تابعة لها إلا روحيا فقط.

1.**عناصر المجتمع الجزائري:** ينقسم المجتمع الجزائري في الفترة العثمانية الى فئات وعناصر متعددة على حسب ما ذكر "هابنسترايت" في رحلته قائلا:« إن سكان مملكة الجزائر ليسوا كلهم من أصول واحدة»[19]، فالأتراك يشكلون العنصر الرئيسي والفعال في المجتمع، وهم يتصفون بالاستبداد والجور في تسيير شؤون البلاد نظرا لطبيعة الحكم المخول لهم كما تتفق معظم الكتابات الاوروبية في

نعتهم[20] حيث يقول الرحالة في هذا الصدد: « فالحكومة بيد الاتراك الخلص...ينظرون الى الجزائريين نظرة يشوبها الاحتقار وينعتونهم بانهم مجموعة من العصاة أو الخارجين على القانون».[21]

من بين فئات المجتمع كذلك الكراغلة (**Cololis**) وهم الذين ينحدرون من آباء أتراك وأمهات جزائريات ويكونون مع العناصر التركية جيشا تعداده مائة ألف رجل[22]، بالإضافة إلى الأعلاج وهم النصارى الذين اندمجوا في العنصر التركي، ولكنهم ظلوا مبعدين عن تولي منصب الداي[23]، أورد "هابنسترايت" ذكر النصارى بايجاز حيث أن معظمهم كانوا أسرى بينما القلة القليلة من الأحرار؛ كان دورهم مقصورا على التجارة ومهام أخرى وكانت علاقة هذه الفئة بالسلطة تحددها المكانة التي كان يحتلها كل فرد من أفرادها[24]، بينما كانت فئة الحضر في وضعية التبعية المطلقة للأتراك وهم السكان الاوائل للمدينة[25]، ويقصد "هابنسترايت" بهم العناصر الاولى التي ولدت في المدينة وترعرعت بها عبر مراحل تاريخية متعاقبة، إلا أنهم همشوا من طرف السلطة الحاكمة فليس لأحد منهم الحق في حمل السلاح كما أن أملاكهم معرضة للمصادرة لأقل خطأ يصدر منهم في حق الاتراك[26].

عرفت مدينة الجزائر كذلك فئة العرب الذين كانوا ينتجعون من الريف والمناطق النائية موطنا لهم، فكانوا يتمتعون بحرية كبيرة في البداوة بعيدا عن المدينة وهم ينقسمون الى قبائل وعشائر تعيش تحت الخيام وعندما ينتقلون من مكان لآخر يحملون معهم كل ما يملكونه من أقوات ومتاع وحيوانات،[27] كما اعتاد هؤلاء العرب الرحل الهروب الى الصحراء عندما يقترب وقت تسديد الجباية إلا أن داي الجزائر كان يرسل فرق الجند المعروفة بالمحلة الى مواطنهم وقت الحصاد ليتمكن من استخلاصها،[28]كما أورد الرحالة الالماني في رحلته أن مدينة الجزائر يتواجد بها عرب ينتمون الى الاقاليم الداخلية وهم ما يعرفون بالبرانية لانهم دخلاء على المدينة بحثا عن العمل والارتزاق وكونت فئة اجتماعية استقرت بنواحي باب عزون في الجهة الشرقية للمدينة.[29]

شملت مدينة الجزائر على فئة أخرى تعتبر من بين الفئات الاجتماعية الاكثر نشاطا في المجال الاقتصادي لاسيما التجاري، وهم اليهود الذين ورد ذكرهم في الرحلة بشكل مختصر حيث قال الرحالة الالماني: « فان مدينة الجزائر مأهولة بعدد كبير من اليهود، ويسدد كل واحد منهم ضريبة تقدر بريالين في الشهر، وهذا ما يدر على الخزينة مقدارا معتبرا من المال»[30]، و قدر ناصر الدين سعيدوني عددهم بمدينة الجزائر ما بين 7.000 و8.000 نسمة، وقد أوكلت العناية بشؤونهم الى احدى أعيانهم

المعروف بمقدم اليهود، وهو بمثابة أمين لجماعة اليهود يتعامل باسمهم مع موظفي البايلك،[31] ولم تقتصر العائلات اليهودية بالجزائر على التجارة فقط بل شملت هيمنتهم ميدان السياسة[32] الذي ورط الجزائر في صراعات قاتلة خاصة مع بداية القرن التاسع عشر ميلادي.

2.**عادات وتقاليد المجتمع الجزائري:** تنوعت عادات وتقاليد المجتمع الجزائري خلال الفترة العثمانية نظرا لطبيعته العرقية وضوابطه الدينية وطقوسه الاحتفالية التي حددها "هابنسترايت" في رحلته بأنها تخضع للشريعة الإسلامية، لأنها تمثل قانون جماعي يوفر جو ملائم للتعايش بين جميع الفئات وضرورة الالتزام بها لكونها تضمن المصلحة المشتركة لهذا المجتمع في نظر صاحب الرحلة، فمن العادات الحسنة التي أوردها هي المعاملة بالمعروف للمسلم مع أصدقائه بينما شديدا مع أعدائه رحيما بالمنهزمين[33]، ونجده يعقد مقارنة بين وضعية الاسرى النصارى في الجزائر والجزائريين في مرسيليا فالجزائريون عاشوا حالة الشقاء لا يستطعون إلا بشق الجهد جر أغلالهم الثقيلة،[34] بينما يتمتع النصارى في الجزائر بالحرية مقابل دفعهم مبلغا ماليا.

يتمتع كل فرد في المجتمع الجزائري بحرية المعتقد لا يلزم ولا يكره على اتباع أو الاخضاع الى اتجاه معين، وهذا ما نلمسه من عادات أهل الجزائر المستمدة من الاسلام لاسيما الكرم والعدل مع الاجانب وهو ما جاء على ذكره صاحب الرحلة قائلا:«يتمتع الكل في الجزائر بحرية المعتقد، فالأجانب يكرمون والكل في وضعية تمكنهم من القيام بما يرغبون فيه، والأسير المسيحي يستطيع أن يحصل على حكم عادل عن أي معاملة سيئة يتلقاها من سيده».[35]

يفيدنا الرحالة الالماني "هابنسترايت" في رحلته أن أغلب العادات التي يمارسها الجزائريون تستند في أساسها الى قوانين (الأعراف)[36] ، وما يدل على ذلك عادة غياب النساء عن الحياة العامة واحتشامهن الشديد فلا يسرن في الازقة بدون حجاب، وعندما يسافرن على ظهور البغال يكن مختبئات في ستائر غريبة وتفضل المرأة الجزائرية أن تموت على أن يراها أحد منكشفة[37]، مما ترك انطباعا غير مألوفا للأوربي بالنسبة اليه على العكس ما كان يعيشه في بلده، وبالتالي نجد أن العرف هو بمثابة منهج اجتماعي يظهر وجوده بشكل واضح في حياة المرأة الجزائرية في الفترة العثمانية.

تظهر عادة ارتداء الملابس لدى الجزائريين بشكل تقليدي في ثنايا هذه الرحلة، اذ يقول "هابنسترايت" في هذا الشأن: «والجزائريون من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم..يقومون في الغالب

بالحج الى مكة المكرمة، وبعد آداء هذه الفريضة يرتدون الملابس الخضراء..وهو اللباس الذي يميز الأشراف الذين يدعون أنهم من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم»[38]، ويفسر لنا سعيدوني هذه العادة على أنها مرتبطة بخصوصيات وأصول الأشراف الجزائريين الذين كانوا يحصلون على قدر كاف من العناية المالية والدينية من طرف السلطة.

انتشرت ظاهرة الفساد والانحلال الخلقي في المجتمع الجزائري وأصبح شرب الخمر من العادات السيئة التي كان الاسرى الاوروبيين يقومون بها مع بعض جماعات من الجند الإنكشارية، وهذا راجع لطبيعة النشاط البحري وتواجد العنصر الاجنبي بالجزائر الذي أفرز وجود خمارات بالمدينة من أهمها حانات قصر الرايس المعروفة بسبع تبارن[39]، إلا أن الذي يتعاطى الخمر الى حد السكر والهيجان ثم يرتكب أكبر التجاوزات فيكون مصيره القتل في أغلب الاحيان كما يورد لنا صاحب الرحلة[40]، وغالبا ما يحدث ذلك في أيام العيد بعد الامتناع عنها طيلة شهر كامل من الصوم.

يرى الرحالة الالماني "هابنسترايت" أن طقوس الاحتفال بعيد الفطر لدى المجتمع الجزائري من العادات الحميدة، حيث يصف لنا أجواء الاحتفال كما يلي:« ومع نهاية شهر رمضان ورؤية هلال العيد ينقل الخبر على جناح السرعة إلى الداي ليأمر بإطلاق المدافع إعلانا بانتهاء شهر رمضان وحلول العيد..وقد جرت العادة صبيحة اليوم الأول من عيد الفطر أن يذهب الناس إلى إلقاء السلام وتقديم التهنئة إلى الأفندي الأكبر أو الداي»[41]، وينجر عن هذه العادة عوائد أخرى من بينها:

- الاستعداد لمبارزة رسمية لدى الجنود الأتراك بأنغام موسيقى الإنكشارية.
- التسلية والشعور بالفرح لدى العامة بهذه المبارزة.
- ارتداء لباس الحفل الرسمي للداي وأعضاء ديوانه.
- زيارة القناصل الاوربيين للداي وتهنئته بمناسبة العيد.
- وضع مائدة غذاء في أطباق من الفخار مع تقديم القهوة والحلويات.

رابعا: البنية العمرانية[42] لمدينة الجزائر من خلال الرحلة

لاشك أن مدينة الجزائر تعد من أهم مدن القارة الافريقية على المستوى السياسي والاقتصادي والديني تتوفر على منشئات معمارية وتشرف على رصيف بحري يجعلها منطقة استراتيجية مهمة،

وسنرى دور هاته المنشئات المعمارية في مختلف المجالات ووظائفها الاجتماعية التي أتى على ذكرها الرحالة الألماني "هابنسترايت"[43]:

1.**الأبراج**: توفرت مدينة الجزائر على سبع أبراج حربية والتي شكلت حصنا منيعا للمدينة من هجمات معاكسة، وهم: برج الفنار وبرج حصن الامبراطور الذي يقع في الطرف الاعلى من المدينة، والبرج الجديد وبرج باب عزون وبرج الوادي ويزيد سعيدوني برجين آخرين لم يذكرهما صاحب الرحلة وهما: برج تافورة وبرج تامنتافوست[44].

2.**المنازل**: جاء وصف المنازل في الرحلة بالمنتظمة وجيدة البناء من حيث نوعيتها، وكل جزء من المنزل منفصل على الأجزاء الأخرى لاسيما الأجنحة الداخلية حتى تظل النساء في معزل، أما الغرف فهي مستطيلة تزينها سور أوراق الأشجار وأشكال المنمنمات المحفورة على الجبس، كما أن للمنازل أسطح مهيأة لأن تكون مكانا للإستراحة وتشاهد في المنازل الزهور والنبات والأثاث الجميلة، أما المنازل الريفية فهي مريحة جدا للسكن وبها بساتين البرتقال.[45]

3.**الحمامات**: ورد ذكرها في الرحلة بشكل مقتضب، حيث قال "هابنسترايت":« حمامات مدينة الجزائر مريحة ومزينة والذين يستعملونها تقدم لهم خدمات جيدة».[46]

4.**المساجد**: هي متقنة البناء منها عشرة مساجد كبيرة ذات منارات أما التي تقل شأنا فعددها يفوق الخمسين، فهي مكان للعبادة وأراضيها مغطاة بالحصائر والزرابي وأبنيتها تشدها عرصات قوية تتدلى بينها في اتساق ونظام قناديل من الزجاج،[47] كما تظل هذه المساجد مفتوحة طيلة اليوم لأداء الصلوات وبواسطتها يمكن تقسيم اليوم ومعرفة التوقيت[48].

5.**المقابر**: ذكر "هابنسترايت" أن المقابر تقع خارج المدينة وهي بمثابة مزارات وخاصة أضرحة المرابطين التي تتخذ أماكن للعبادة ويكون الجناة في مأمن عند احتمائهم بأحد المساجد أو الأضرحة[49]، ويشير الى ظاهرة غريبة في مجتمع مدينة الجزائر وهي قبور الدايات الذين يموتون بدون التعرض للقتل من الصعب العثور عليها ثم اذا وجدت تتخذ مزارات للتبرك بها[50]؛ كما يعطينا حقائق تاريخية حول الدايات الذين يقتلون فيدفنون لدون إقامة مراسيم الدفن، وتوجد ستة قبور لدايات تم اغتيالهم في نفس اليوم الذي تولوا فيه منصب الداي، والقبر السابع الذي بجانبهم هو للداي الذي تغلب على منافسيه

بفعل قوة مناصريه[51]، أما بقية القبور فمظهرها يختلف بحسب مكانة أصحابها بين قبر رفيع المقام وآخر شأنا.

خامسا: الجغرافية الطبيعية لمدينة الجزائر:

قدم الرحالة الألماني "هابنسترايت" ملاحظات هامة عن مدينة الجزائر وضواحيها من ناحية الجغرافيا التضاريسية وطبيعة المناخ وخصوبة الأراضي وأضفى على ذلك اسهابا اقتصاديا واضحا، فيصف لنا ذلك قائلا:« ضواحي مدينة الجزائر ذات تضاريس جبلية ولها مناظر تدخل البهجة والسرور على النفس، تتخللها أودية رطبة تتميز بخصوبتها، تشاهد فيها الكثير من الحدائق بها أشجار العنب والبرتقال واللوز وغيرها من الأشجار المثمرة والغير المثمرة مثل السرو»[52].

كما عرفت مدينة الجزائر تنوعا زراعيا وانتعاشا اقتصاديا جيدا، وذلك نتيجة إعتدال المناخ ووفرة الأراضي الصالحة للزراعة استنادا إلى ما يصفه لنا صاحب الرحلة في رحلته قائلا:« وأراضي الجزائر صالحة لزراعة الحنطة، وسكان سهل متيجة الجميل وعرب بايلك وهران يزودون مخازن الداي بهذا المنتوج ليقوم هو ببيعه للأجانب الذين أصبحوا بفعل هذه المبادلات من كبار التجار بفرنسا وإسبانيا وجبل طارق...وإن رطوبة الشتاء التي تتعمق كثيرا في التربة تعوض انقطاع المطر الذي يصبح نادرا جدا في شهر أبريل وحتى شهر أكتوبر، فالزهور والنباتات شاهدناها في هذا الفصل ساعدت على نموها رطوبة الأرض».[53]

شكلت المنطقة الجنوبية للمدينة الجزائر وضواحيها برية واسعة وعامرة بالحيوانات المختلفة لاسيما المتوحشة منها على حد تعبير صاحب الرحلة، ولا يمكن الحصول عليها إلا بأمر من الداي عندما يرغب في تقديم هدايا لإحدى الدول الأوربية أو عندما يعود الجند الإنكشاريون المشاركون في المحلات[54] التي تجوب تلك الجهات لاستخلاص الجبايات، إضافة إلى ذلك لقي "هابنسترايت" اهتماما كبيرا من طرف آغا المحلة (ابن الداي) بمنحه لبؤة صغير كهدية وأصدر أوامره بأن يبحث لي عن كل أنواع الحيوانات النادرة[55]، ثم أصبح يمتلك حضيرة صغيرة من هذه الحيوانات يذكرها في رحلته قائلا:« وقد أصبحت حضيرتي من هذه الحيوانات الأن تتكون من اللبؤة الصغيرة وقنفذين وقط متوحش(**chat tigre**) وابن مقرض(**furet**) وظبي(**antilope**)...أما بحر الجزائر فوفر لمجموعتي أسماكا نادرة عملت على تجفيفها أو رسمها لفائدة المكتب الملكي الذي أقوم بالرحلة لحسابه.»[56]

E- ISSN : 2571-9742

يبدو من خلال هاته الملاحظات التي قدمها لنا الرحالة الألماني أن مدينة الجزائر وضواحيها كانت تتوفر على تضاريس مترامية الأطراف، تتواجد بها كل أنواع وأصناف الحيوانات النادرة التي كان يقدمها دايات الجزائر هدايا إلى ملوك أوربا، كما رأينا في ثنايا هاته الرحلة أن "هابنسترايت" حظي باهتمام وثقة حكام الجزائر الذين وفروا له أجواء ملائمة لإكتشاف أدغال الجزائر العميقة من ناحية طبيعتها المناخية المساعدة على وفرة المنتوجات الحيوانية والنباتية.

لعبت رحلة العالم الألماني "هابنسترايت" دورا كبيرا في الكشف الجغرافي والحضاري على حد سواء، كما تضمت تفاصيل دقيقة عن مظاهر الحياة الإجتماعية التي رأينا فيها تعدد الأجناس والثقافات في نسق اجتماعي موحد يخضع لسلطة الأتراك العثمانيين ذات المرجعية الدينية الإسلامية تخدم المصلحة المشتركة، والتمست من خلال هذه الرحلة إعجاب صاحبها بعادات وتقاليد مجتمع مدينة الجزائر التي تستند في أصولها إلى تراث وتاريخ المنطقة، حيث يصفها بالغريبة لأنه رأى فيها مظاهر الإحتشام والمعاملة بالمعروف مع غير المسلمين خاصة الأسرى فضلا عن عادات أخرى ارتاح لها؛ وهذا ما لم يعهده في منشأه وبلده الذي لا يرقى إلى مستوى هذه العادات في الجزائر.

كما أبرزت هذه الرحلة المنشآت المعمارية ووظائفا الدينية والإجتماعية لمدينة الجزائر، وتم بنائها على نمط الطريقة التقليدية بمسحة تركية عثمانية خاصة في المساجد لأنها رمز الهوية التاريخية والدينية للسلطة؛ كما نشير في هذا البحث إلى حنكة ومهارة "هابنسترايت" مع حكام الجزائر في الحصول على ما يريد في مهمته الإستكشافية بالجزائر، والتي يعبر عنها مترجم الرحلة "سعيدوني" بأنها أقرب إلى الاتزان وأميل إلى الموضوعية في تقديم صورة صادقة عن الجزائر سياسيا وحضاريا واجتماعيا.

E- ISSN : 2571-9742
DM

الهوامش:

[1]– ذكر مترجم هاته الرحلة "ناصر الدين سعيدوني" أن التعريف بشخصية هذا العالم النباتي ظلت مجهولة لدى القراء والباحثين، رغم بحوثه المستفيضة في مجال الطب وعلم النبات، فلا يكادون يعرفون عنه سوى معلومات متواضعة من خلال رحلته.

[2]– ناصر الدين سعيدوني، رحلة العالم الالماني "ج.أو. هابنسرايت" الى الجزائر وتونس وطرابلس(1145هـ – 1732م)،ط1، دار الغرب الإسلامي، تونس، 2008م، ص ص 12–13.

[3]– نفسه، ص.13

[4]– هو الملك "أغسطس الثاني (1733–1670م)" ومنتخب منطقة الساكس في اختيار الامبراطور الجرماني وملك بولونيا، تخلى عن معتقده البروتستانتي ليمكن له اعتلاء عرش بولونيا بعد وفاة الملك يوحنا الثالث، تحالف مع العاهل الروسي بطرس الاكبر ضد شارل الثاني عشر ملك السويد، وقد أرغمه هو الاخر على التخلي عن ملك بولونيا لفائدة ستانيسلاس ليزنسكي، توفي عام 1733م وخلفه ابنه الذي احتفظ بعرش بولونيا ضد منافسيه. للتعرف أكثر ينظر الى ناصر الدين سعيدوني، المصدر السابق، ص.21

[5]– نفسه، .16

[6]– نفسه، ص.14

[7]– نفسه، ص.14

[8]– يعبر المؤرخون عن موقفهم اتجاه الكتابات الغربية خاصة كتب الرحلة على أنها مصدر رئيسي ومباشر في الاعتماد عليه بعين التمحيص وإمعان العقل والنظر، لأنه يتيح للقارئ والباحث معلومات مغيبة في المضان المحلية، اذ نجد هناك

اجماع في ذلك مادامت هذه الكتابات تخدم البحث العلمي نحو الأمام، رغم اختلاف اهداف أصحابها وتباين اتجاهاتهم الايديولوجية وأغراضهم التجسسية وتضارب معلوماتهم في الكثير من الأحيان، وبالتالي هي لا تقل أهمية عن الكتابات المحلية سواء كانت رسمية أو غيرها.

[9]– ناصر الدين سعيدوني، نفسه، ص.19

[10]– **الرحلة:** بمعنى السير و الضرب في الأرض، وجاءت بمعنى الارتحال أي الانتقال من مكان لآخر أي تحديد الوجهة أو المقصد الذي يراد السفر اليه و ذلك لتحقيق هدف معين ماديا أو معنويا، وهي فن أدبي يقدمه الرحالة عما أحس به وهو يجوب الافاق مكتشفا أو متعلما، وتوسل الى التعبير عن ذلك تارة بالشعر وأخرى بالنثر فضلا عن الاحاطة بظروف المعاينة وملل الناس ونحلهم. ينظر الى بن منظور، لسان العرب، ج11، دار صادر، بيروت، لبنان،1990م، ص270.وينظر كذلك إلى: الحسن الشاهدي، أدب الرحلة بالمغرب العربي في العصر المريني، ج1، منشورات عكاظ، الرباط، (دت)، ص.47

[11]– ناصر الدين سعيدوني، المصدر السابق، ص.13

[12]– نفسه، ص.16

[13]– نفسه، ص.15

[14]– يشير الدكتور عميراوي احميدة إلى أن صورة الجزائر في القرن الثامن عشر لم تكن واضحة جيدا، بفعل أن المصادر العربية والتركية كانت قليلة الأهمية في نظر الأوروبيين، ولكن أغلب ملامح هذه الصورة الكاملة لبلاد الجزائر رسمها الأوروبيون، سواء الرحالة منهم أو القناصل أو الأسرى. للمزيد من الاطلاع أكثر يرجع إلى: عميراوي احميدة، الجزائر في أدبيات الرحلة والأسر خلال العهد العثماني (مذكرات تيندا أنموذجا)، دار الهدى، الجزائر، 2003م، ص .09

[15]– ناصر الدين سعيدوني، نفسه، ص.16

[16]– نفسه، ص.24

[17]– مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل سنة 1830م، ج2، دار الأمة، الجزائر، 2012م، ص .339

[18]– نفسه، ص.73

[19]– ناصر الدين سعيدوني، رحلة العالم الالماني "ج.أو. هابنسرايت"، المصدر السابق، ص.29

[20]– أرزقي شويتام، المجتمع الجزائري وفعالياته في العهد العثماني 1519–1830م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الجزائر، 2005–2006م، ص.52

[21]– ناصر الدين سعيدوني، نفسه، ص.29

[22]– نفسه، ص ص 29–30، يسمى هذا الجيش بالانكشارية أغلبه من الاسرى الاوربيين وفيه الكراغلة وهم عنصر فرعي من هذا الجيش، الذي يمثل مكون رئيسي داخل المجتمع الجزائري، كما تمكن الكراغلة منذ بداية القرن الثامن عشر من الوصول الى مناصب سامية في البايليكات، الامر الذي كان يهدد السيطرة التركية ويزيد من ارتباط الجنود بالأهالي

E- ISSN : 2571-9742

وتخليهم عن مهامهم العسكرية وانشغالهم بالأمور العائلية. للمزيد من التعرف أكثر ينظر إلى: هلايلي حنيفي، الحياة الاجتماعية للجيش الانكشاري في الجزائر خلال العهد العثماني، مجلة الحوار الفكري تصدر عن مخبر الدراسات التاريخية والفلسفية، جامعة منتوري قسنطينة، العدد 04، سبتمبر 2004م، 134.

[23]– ناصر الدين سعيدوني، رحلة العالم الالماني "ج.أو. هابنسرايت"، المصدر السابق ، ص.32

[24]– أرزقي شويتام، المرجع السابق، ص.131

[25]– يذكر حمدان خوجة في كتابه المرآة أن التركيبة الاجتماعية لمدينة الجزائر شملت مختلف الفئات الإثنية، ولهم صفات خاصة وأخرى عامة وان المناخ لذو تأثير على طبيعة الإنسان، فهم شجعان واجتماعيون وأوفياء للعهود، وكرماء وبسطاء في نمط حياتهم ونظيفون في منازلهم، وصناعيون وتجار وهم مسالمون بالطبع...ينظر إلى: حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتحقيق: محمد العربي الزبيري، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 2006م، ص ص 63-64.

[26]– ناصر الدين سعيدوني، رحلة العالم الالماني "ج.أو. هابنسرايت"، المصدر السابق ، ص.32

[27]– نفسه، ص.32

[28]– نفسه، ص.33

[29]- De Haedo, «Topographie et Histoire d'Alger»,Trad .de l'Espagnol Par A. . F Berbrugger et Monnereau, in R.A. N° 14 Alger 1870 , pp. 491-492.

[30]– ناصر الدين سعيدوني، نفسه، ص33.

[31]– ــــــــــــــــــ، النظام المالي للجزائر أواخر العهد العثماني (1791-1830م)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، ص .105

[32]– للمزيد من التعرف أكثر يرجع الى البحث الذي كتبه محمد أمين حول يهود ليفورنيون بالجزائر في أواخر العهد العثماني عائلتا بكري وبوشناق نموذجا ضمن كتاب جماعي تحت "عنوان العثمانيون والعالم المتوسطي مقاربات جديدة"، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط، ط1، 2003م، ص .323

[33]– ناصر الدين سعيدوني، رحلة العالم الالماني "ج.أو. هابنسرايت"، المصدر السابق، ص .46

[34]– نفسه، ص .46

[35]– نفسه، ص .46

[36]– **الأعراف:** مفرد عرف وهو ما تعارف عليه الناس وأجمعت العقلاء على الرضاء به من الأمور، ينظر الى: محمد فريد وجدي، دائرة معارف القرن العشرين، المجلد السادس، ط3، دار الفكر، لبنان، 1971م، ص.368

[37]– ناصر الدين سعيدوني، رحلة العالم الالماني "ج.أو. هابنسرايت"، نفسه، ص .47

[38]– نفسه، ص .47

[39]– نفسه، ص .48

[40]– نفسه، ص.48

E- ISSN : 2571-9742
DM

[41]– نفسه، ص ص 48– 49.

[42]– يمكن تقسيم مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية طبوغرافيا إلى قسمين: القسم العلوي للمدينة الذي يدعى بالجبل ويحتوي على مساكن كثيرة، الى جانب أحياء خاصة بأصناف الحرف ومساجد الأحياء، أما القسم السفلي من المدينة الذي كان مركزا للأعمال الإدارية الحكومية، فقد ضم معظم المباني والقصور الفخمة، واحتوت على أكبر شارع رئيسي يمتد من باب الواد غربا إلى باب عزون شرقا، كما تعود أهمية هذه الناحية إلى مجاورتها لميناء الجزائر. ينظر إلى: بورابة لطيفة، دار الحمراء بمدينة الجزائر العثمانية (دراسة تاريخية أثرية)، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والإجتماعية، العدد 20، ديسمبر 2012م، ص 161.

[43]– يبدو أن"هابنسترايت" أخطأ عندما ذكر تاريخ مدينة الجزائر في العهد القديم وسماها مدينة جوليا القيصرية وانما هذه التسمية تطلق على مدينة شرشال، والصواب هو إيكوزيوم (**Ikosium**) هي مدينة قديمة احتوت على آثار ترجع الى العهد الفينيقي كما ذكر المؤرخ مختار حساني، ويذكر المستشرق "ريمي ليسبس" بأنها ضيعة بربرية تتموقع ما بين البحر والصحراء ،تميل إلى الساحل ذات أصول بربرية ترجع الى قبيلة بني مزغنة، وهي تمثل مركز استراتيجي وعسكري هام في العصر الحديث. ينظر إلى: مختار حساني، موسوعة تاريخ وثقافة المدن الجزائرية، ج1، دار الحكمة، الجزائر، 2007م، ص8. وينظر كذلك الى: Remé lespes, Alger :la position, Revue Al Açala, n°5, Alger, Mai 1972,p03.

[44]– ينظر إلى: ناصر الدين سعيدوني، رحلة العالم الالماني "ج.أو. هابنسرايت"، المصدر السابق، ص 36.

[45]– نفسه، ص 37.

[46]– نفسه، ص 37.

[47]– نفسه، ص ص 37– 38.

[48]– كما كانت توجد داخل العمارة العسكرية العثمانية مساجد خاصة بالجيش أو الحامية، التي تشرف على مراقبة وإدارة وتسيير البروج والثكن والحصون، وبإمكان أي انسان مشاهدة أنواع هذه المساجد ببرج تامنتفوست وبرج الإنجليز أو برج 24 ساعة بحي الرايس حميدو مسجد البحرية بميناء الجزائر. ينظر إلى: علي خلاصي، قصبة مدينة الجزائر، ج2، ط1، دار الحضارة، الجزائر، 2007م، ص09.

[49]– ناصر الدين سعيدوني، رحلة العالم الالماني "ج.أو. هابنسرايت"، المصدر السابق، ص 38.

[50]– نفسه، ص 40.

[51]– يوضح لنا ناصر الدين سعيدوني على هامش الرحلة أن ذلك ارتبط بفترة الفوضى التي تسبب فيها ضباط الحامية (الإنكشارية)، وانقسم أثنائها الديوان إلى شيع وجماعات متنافسة، نفسه، ص 40.

[52]– نفسه، ص 49.

[53]– نفسه، ص 50.

[54]– **المحلات:** جمع محلة، وهي حملات فصلية تتوجه فيها فرق الجند (اليولداش) وعلى رأسها الآغا من مدينة الجزائر وكذلك من مراكز المقاطعات (قسنطينة ومعسكر والمدية)، بقيادة البايات نحو المناطق الجبلية والسهبية بالداخل لاستخلاص الضرائب وجمع الرسوم وإيقاع العقاب بالعصاة والمتمردين، وهذه الحملات الفصلية عادة ما تخرج قبل نهاية فصل الربيع ومع حلول فصل الخريف. ينظر إلى: ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي، المرجع السابق، ص ص 122–125.

[55]– ناصر الدين سعيدوني، رحلة العالم الالماني "ج.أو. هابنسرايت"، المصدر السابق، ص .51

[56] – نفسه، ص 51.